17 me Année No. 880

Lundi — 30 — 5 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٨٣٠ « القاهرة في يوم الاثنين ٢ شعبان سنة ١٣٦٨ — ٣٠ مايو سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

٥ — أمم حـــائرة

المدارس أو دور العلم

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض بالمملكة السعودية

أعني كل موضع درس ، من المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية والمدارس العالية ومنها الجامعات ، فلنتوجه إليها لعلنا نجد هدى بعد حيرة ، واطمئناناً بعد قلق . ولعلنا نجد صلاحاً لأمورنا ، وطباً لأدوائنا ، وتأليفاً لنفرتنا ، وجمعاً لشملنا :

كان من عناية الأمم والحكومات بالتعليم والتربية أن أنشئت هذه الأنواع من المدارس وعم نظامها ؛ وقد سرنا على نهج الأوربيين في أنواعها ، وموضوعات دروسها ، ومناهجها ، إلا قليلا . وكثرت هـذه المدارس وشاعت في المدن والقرى ولا تزال تكثر وتشيع .

وزالت ، أو كادت تزول ، ضروب الدراسة القديمة ؛ سواء ما كان لتعليم الصبيان مثل الكتاتيب أو دور الكتاب ، وما كان لتعليم الكبار كالمدارس التي كانت في القاهرة والأسكندرية وأسيوط وقوص وغيرها ، ومدارس العلماء الخاصة في بيوتهم أو مساجدهم . وتم قيام الحكومة على التعليم وإشرافها عليه ، واضطلاعها بأعبائه ، وانفرادها بتدبيره .

وغفلنا في فتنة المدارس والشهادات عن ضروب من الدراسة للمبتدئين والمنتهين كان يضطلع بها ناس في القرى والمدن ابتغاء خير الناس أنفسهم . ولو عنينا بهم ، وحدنا فضلهم ، وأثبناهم عليه ، وحفزناهم إليه ، لمضوا يحملون عن الحكومة بعض العبء ، ويسدون بعض الحاجة . ولكنا أغفلنا أمرهم ، وهجرهم الناس إلى المدارس الجديدة فحملت الحكومة العبء باهظاً ، واحتملت الأمانة وحدها .

وقد سرنا سيراً ، وتقدمنا تقدماً ، وأصبنا مغانم كثيرة . فازداد إقبال الناس على المدارس ، وعظمت عناية الحكومة بها ، واستجابت لرغبات الراغبين في دخولها والحصول على شهاداتها فتيسل وظائفها . فكثرت المدارس ثم كثرت ، وازدحمت بالدرسين ثم ازدحمت .

وغلونا في الإعداد بالتعليم الدرسي غلواً دفعنا إلى الإسراع فيه قبل الإعداد له ، وإلى الازدحام على المدارس بأكثر مما تسع .

وغفلنا في هذا الغلو عن ضروب من التعليم والتهذيب خارج المدارس وحسبنا أن القراءة والكتابة هي وسيلة التثقيف لا وسيلة غيرها . وكم من أناس نبغوا وهم لا يقرءون ، ودرسوا وهم لا يكتبون ، هديهم التجارب وهداهم السمع والبصر إلى ما اهتدى إليه القارئون أو قصروا عنه .

لا أجحد فضل الكتابة على الحضارة ، ونعمتها على البشر . ولكني آخذ على الناس الغلو في إعظامها والغلو في احتقار ما سواها من الوسائل . ولا أنكر أن الوسائل الأخرى في أكثر الأحيان راجعة إليها مستمدة منها . لا أنكر هذا وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . ولكن أدعو إلى أن يسجل الناس معارفهم ثم ينتفعوا بها بكل وسيلة من إقراء أو إنشاد أو إسماع إلى أن تعم الكتابة كل فرد . وكم في تاريخ العلم من نابغ ضرير لم يقرأ .

* * *

وانتهينا فراعنا جموع تغدو وتروح إلى دور العلم ، لا تمس الثقافة أرواحها ، ولا يتصل العلم بقلوبها ، وإذا المدارس كالمطابع تخرج كتباً لا عقولاً ، وتكثر أمثلة لا أنفساً ، أو كالمصانع ترى بقوالب متشابهة وأشكال متماثلة .

وانتهينا فراعنا أن نرى هم الطالب في الجامعة أن يمضي سنوات ينتهي به إلى شهادة ، وأن تراه يكتفي بما يجتاز به الامتحان ، ويجتاز الامتحان بأية وسيلة ، فإذا طوى السنين واجتاز الامتحان وظفر بالشهادة شرع يطالب بحقه في الوظائف ، وينادي بما في يده ، لا في عقله وقلبه ، من شهادة ، ويخدع نفسه بما يدعي من علم ، ويزدري الناس إذ لم يبلغوا من العلم ما بلغ ، ولم تشهد لهم الأوراق كما شهدت له .

وتنظر إلى المتعلم في الطريق وفي المدرسة فلا يرضيك هيئته ، وتكلمه فلا يعجبك حديثه ، وتختبره فلا يسرك علمه ولا اعتقاده ولا رأيه ، إلا قليلاً من الطلبة الصالحين غلبت طبائعهم وأخلاقهم وأسرهم هذه البيئة الفاسدة المفسدة الجائرة الجائرة .

وتنظر فإذا التلاميذ يهجرون الدروس إن استطاعوا ، ويقعدون عن دور العلم إن قدروا ؛ وإذا طلبة الجامعة ، وقد أوتوا نصيباً من الحرية ، يهجرون المحاضرات أو يكتفون بالقدر الذي يحتمه القانون ، بل يحتالون له بتوقيعات مزورة أحياناً ليسجلوا لأنفسهم هذا المقدار .

لقد رأيت تلميذاً خارجاً من الجامعة ضحوة النهار ينادي صاحبه في غير خجل (الأمريكين الساعة ١١) . ويكاد يكون الداء كله ، والشر جميعه هنا . هذه الملاهي واللاهي التي تجذب الصبيان والشبان بالليل والنهار وتشغلهم عن أعمالهم ، وتفتنهم عن آدابهم ، وتفسدهم بكل ضروب الفساد .

إن التلميذ الذي يترك محاضرته وأستاذه ومكتبته ليسارع إلى الأمريكين وغير الأمريكين لا يرجى منه خير . وإن التلميذ الذي يمضي ليله أو بعض ليله ساهراً في هذه الملاهي لا تبقى فيه بقية لتعليم أو تهذيب . وليس الإثم عليه ولكن على من أحاطوه بهذه الفتن ثم خلوا بينه وبينها .

* * *

ثم نظرنا فإذا التلميذ خارج على كل نظام ، مزدر بكل قانون ، مستهين بعمله ومدرسته وحكومته وأمته ، من حيث يدري ولا يدري ؛ وإذا أقرب شيء إلى نفوس التلاميذ أن يصيح صائح بهجر الدرس ، أو ينعق ناعق بتدمير المدرسة ، أو يأمر شيطان بالهجوم على معلم أو ناظر ، أو الاقتحام على مجلس الجامعة وفيه كبار الأساتيذ ، فتردد الصيحة ، وتستجاب الدعوة ، فينطلق الشر من عقاله إلى غير غاية . ونظرنا فإذا هنا الهرج والمرج وما هو أشنع من الهرج والمرج .

ويقولون الحرية الحرية أن نخرج إذا شئنا ، وأن نضرب إذا أردنا . ويمضون في دعوى الحرية فإذا لهم الحرية في أن يخرجوا غيرهم من دور العلم قسراً ، وإذا لهم الحرية في أن يحرموا إخوانهم حريتهم في الاستماع إلى الدرس ، وينكروا على معلميهم الحرية في التدريس ، وإذا الفئة القليلة الشاغبة لها الحرية في أن تخرج الفئة الكثيرة الحريصة على العلم ، وإذا هذه الكثرة المستمعة إلى الدرس ليس لها الحرية في أن تستمع ، ولهذه القلة الصاخبة كل الحرية في أن تمتنع عن الدرس وأن تمنع غيرها .

وانتهينا فراعنا أن شفقة الآباء وبر الأولاد — وكانا عماد ما بين التلميذ وأستاذه — قد ضلا في هذه الفوضاء ، وامحيا في هذا الشقاء . وإذا آلات كآلات السكينة تدور لا عقل لها ولا قلب ، ولا سمع ولا بصر .

فنقول رحم الله زماناً كان سرور التلميذ وفخره بأن يكلمه أستاذه ، وأن يكب هو على يد أستاذه يقبلها في المدرسة وغير

المدرسة ! ورحم الله أيام كان طلبة الأزهر يقبلون يد الشيخ عقب كل درس ويتنافسون فى حمل حذائه إلى الباب .

* * *

وعلى ذكر الأزهر أقول : إنه لم ينج من هذه الفتن ، وكان الرجاء أن ينجو ، ولم يبعد عن هذا القلق ، وكان الأمل أن يبعد ، فزهد طلابه فى العلم زُهدَ غيرهم ، وضربوا واختصموا وكان منهم ما كان من طلبة المعاهد الأخرى لم يتخلفوا عنهم ، ولم تنبّههم سُنن الإسلام ، ولا وقرهم تاريخ الأزهر ووقاره وحرمته ، ولا عصمهم من هذا البلاء عاصم .

ذلك بأن الأمة عامة لا تحرص على السنن ، ولا تعنى بالاحتفاظ بالتاريخ ، وأن الأزهر خاصة أخذته فتنة الحديث والقديم ، فأشفق من تاريخه ، وجهد أن ينافس غيره فى الأخذ بالمحدثات ، وخشى أن يقال إنه دون غيره معرفة بالعصر ، ومسايرة له ، واقتباساً منه ، فغلبه التقليد حقيقة وإن تظاهر بالاستقلال والاجتهاد . ولو ثبته الفكر الحر ، ووقره التاريخ المديد ، لأخذ من العصر شيئاً ورد أشياء ، ووافق فى أمر وخالف فى أمور ، وخط لنفسه من تاريخه ومما أحدثت المدنية من علوم وآداب خطة تميزه ، وسار على طريقة هى طريقته ومنهج هو منهجه ، ولكان للأمة ملجأ إذا حارت الأفكار وتنازعت الأهواء ، ولكان للأمة قدوة فى الدين الحق ، والعمل الصالح ، وفى مقاصد الإسلام ووسائله وسننه وغاياته ، وفى البعد عن سفساف الأمور والأخذ بجلائلها .

لقد حافظت جامعات انكلترا على سنتها أكثر مما حافظ الأزهر ، وهى لا تتصل بالدين اتصاله ، ولا توغل فى التاريخ إيغاله .

إننا فى حاجة إلى من يقتبس الصالح غير متردد ، ومن يتمسك بالصالح غير هياب ، ومن يعتد بنفسه وأمته وتاريخه فيقول : هذا حسن وهذا قبيح ، وهذا يصلح لى وهذا لا يصلح . ذلكم هو الأساس الذى يرسو عليه البناء ، وتلكم الخطة التى تستقيم بها الأمور .

* * *

وأنا حين آخذ على الطلبة هذه المآخذ لا ألقى التبعة عليهم ، وأرد الذنب إليهم ، فإنهم يَنْشئون كما يُنَشَّئون ، وينبتون كما يزرعون ، ونصوغهم البيئة على أحوالها ، وتربيهم الأمة على مثالها . لا الومهم ولكن ألوم البيئة التى سيرتهم هذه السيرة ، ولا احقد عليهم بل أرحمهم مما تهافتوا فيه على غير علم . فأنا أعيب العلم قبل المتعلم ، وآخذ الأستاذ بأشد مما آخذ به التلميذ ، وأعيب البيئة والنظام قبل أن أعيب الناشىء الغِرّ ، وأشفق على الشاب وأرحمه ، وأذم أثر البيئة فيه ، وطابع التربية عليه ، لنعمل على إصلاحه ، ونجهد فى إنقاذه .

ولست فى قولى هذا يائساً ولا متشائماً ؛ ولكنى أدعو إلى تدارك الشر قبل استفحاله ، ومداواة الداء قبل إعضاله ، إلى تجنب هذه الطرائق ، والحذر مما تؤدى إليه ، وأنهى عن السير على غير هدى ، والأخذ بغير تمييز ، والقبول بغير نقد .

أرى أمورنا فى حاجة إلى بحث ودرس ، ونقد وتمييز ، وإلى أن تسيرها آراء العلماء على خطة واضحة ، وطريقة مستقيمة ، فلا تترك الأمور فوضى ، ولا تبحث الأشياء فُرادى ، بل يتناولها النظر المحيط ، والنقد الشامل ، ويجمعها النظام التام ، والخطة الجامعة ، يضعها علماء التربية وعلماء النفس وعلماء الأخلاق وعلماء التاريخ وعلماء الدين .

نريد مدارسنا ومعاهدنا دور تعليم وتثقيف ، ومباءة إصلاح وتهذيب ، ومصدر محبة ومودة وألفة وأخوة ، يتجلى فيها الخضوع للقانون ، والإجلال للنظام ، والقيام بالواجب ، وإيثار الخير العام ، والتكلف بالمروءات ، والتحلى بالآداب ، والترفع عن الدنايا . نريد أن يكون بين المعلمين والمتعلمين ما بين الأب الرحيم والابن البار ، وأن تكون المعاهد كلها أسراً كبيرة قائمة على التراحم والتعاضد ، تخرج للأمة كل حين من يتولى إصلاحها ويكفل هدايتها . نريد أرواحاً لا أجساداً ، وأشخاصاً لا أعداداً ، ومعانى لا ألفاظاً ، وحقائق لا صوراً . ونسأل الله التوفيق .

(للمقالة صلة)

عبد الوهاب عزام